ساعة فى بيت مرب

[الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك ناظر معهد التربية]

بقلم المربية الكبيرة الآنسة زينب الحكيم

الآنسة زينب الحكيم من كبريات المربيات اللائى تخصصن فى رياض الاطفال — بجامعة (فريبل) بلندن — تخصصاً واسع المدى ، وقد خدمت التعليم اثنتى عشرة سنة ما بين مدرسة وناظرة فى وزارة المعارف العمومية ، فكانت موضع اجلال وتقدير .

وقد يدهش القارىء اذا ما علم أن الآنسة المهذبة تجمع الى اشتغالها بعلوم التربية ، اطلاعاً كبيراً فى علوم الفلسفة الاسلامية والتصوف الاسلامى ، معدوم النظير . وأذكر — هذه المناسبة — أنى اختلفت معها مرة فى نص من نصوص « ابن عربى » العميقة ، فأدهشنى منها مناقشتها لى فى ذلك النص مناقشة صوفية فلسفية عميقة دامت أكثر من خمس ساعات .

أليس ذلك من الغرابة بمكان ؟ أجل ! ولكنك متى علمت أنها شقيقة كبرى المربيات الآنسة نور الهدى الحكيم ، وفضلاهن السيدة نظلة الحكيم سعيد ، متى علمت ذلك كله زال منك الدهش ؟ المحرر

حين كان الناس فى غفوتهم ... كان أيقاظ النهى فى معزل

قام منهم نابه الذكر الذى ... قد تجلى فى المقام الأول

« أحمد فهمى » (عمروس) التى ... أنجبته من كرام كُمَّل

ينشر الدر على ندواته ... مستفيض العلم بالبحث الجلى

فاستنار العزم فى زمرته ... من رجال العلم بين الجحفل

سددوا الرأى وهبوا أنجما ... كل نجم فى مدار ينجلى

* * *

ثم هاج قلبوه « معهداً » ... هو أولى بالعليم العامل

ليتيهم ما قربوا عزلته ... كيف يعتاض عليم بالخلى ؟

* * *

عالم القطر مرب ، حققوا ... كيف يحيا ، فى جنان المنزل

هاكم فذلكة عن ساعة ... قد قضيناها « بدار الأمثل »

* * *

نعم إنها ساعة من أقيم ساعات الحياة النافعة التى تتراءى فيها للعين مواهب البشر فى سمو مداركها ، وجمال الفنون الناضة عن تلكم المدارك الحساسة ، المنبعث منها جمال الذوق وبهاء العبقرية .

ولعمرى إن الزيارة التى اتيحت لى لمنزل حضرة المربى الكبير الأستاذ «العمروسى بك» ناظر معهد التربية، مع نفر غير قليل من المهتمين بالعلوم والفنون، لتؤيد ما أشارت إليه جريدة « الأهرام » ، بمناسبة حفلة التعارف التى أقامها طلبة « معهد التربية » ، حيث قالت: « كانت الحفلة جامعة بين جلال العلم وجمال الفن ، وتجلت فيها مظاهر التفاهم والمحبة ، التى تسود معاهد العلم » ، وهذه الإشارة قد نطقت عن حق وأدت أجمل معنى يعبر عن بيئة يترأسها أمثال « العمروسى بك » ، والشىء من معدنه لا يستغرب .

فما نتا ما كدنا نصل المنزل الذى تصورناه بيت القصيد ، حتى سألنا (البواب) الجالس أمام البوابة الأنيقة : كم رقم المنزل ؟ فأجاب على الفور : تريدون منزل « العمروسى بك » ؟ تفضلوا ـ فلنا يقرأ الكتاب من عنوانه : وما هى إلا ثوان حتى قابلنا على درج السلم الرخامى الجميل صاحب الدعوة ببشاشته الوسيمة ، وأجلسنا فى حجرة أقل ما يقال فيها إنها تحفة فنية قيمة ، وخيل لنا أن هذا كل ما هنالك من تحف ومعرض دائم ؛ ولكن بعد قليل وقف الأستاذ « العمروسى » وأخذ يفرجنا ويشرح لنا محتويات الحجرة النفيسة ، فإذا ما انتهينا من هذه انتقلنا إلى أخرى أجمل منها ، وقد مدت فى وسطها مائدة الشاى التى تعتبر بحق من ضمن التحف ، لما اصطبغ به ترتيبها من روح الفن العربى والذوق المصرى العالى، ثم انتقلنا إلى حجرة ثالثة يطلق عليها « المكتبة » ، ولكننا عند ما توسطناها لم نر فيها أثراً للكتب ظاهراً ، وما هى إلا لحظة حتى بدأ العالم بما تكمن الدواليب المنسقة حول الجدران ـ بإزاحة الأقفال المتواضعة السهلة الاستعمال ـ وكانت عبارة عن عصافير من الخشب ، فرأينا بدعاً من الكتب ، أما عن شكل (دولاب) المكتبة فالأجدر أن يراه الانسان بنفسه لصعوبة تقريب وصفه إلى خيال القارىء .

وفتح (دولاباً) آخر يضوء بما فيه، وأبى الكرم الحاتمى إلا أن يحمل كل فرد سفرين من بعض ما دبجته يراعه ؛ وفى هذه الحجرة رأينا أعجوبة الفن العربى (وهو دولاب يشبه دواليب الملابس الحديثة ، غير أنه أقل منها حجماً وارتفاعاً ، وقد صنع بابه من أجزاء زخرفية كلها متحركة ـ ولم نعلم كيف تتحرك ـ وإذا نظرت إلى بعضها على غير احتياط ، خيل لك أن حدقات تجلا تنظر إليك) .

ويشبه هذا (الدولاب) آخر رأيناه فى الحجرة الأولى ، أما عن فتحات هذه (الدواليب) العتيقة وكيفية استعمالها ، فالوصف فيها لا يفيد والأفضل رؤيتها ؛ هذا عدا مجاميع الزجاج الملكفت الظريف ، والأوانى الفيشانية النادرة المثال ، والأقداح (الشفتشية) من الفضة ، والاطارات التى تدل على التفنن فى الكتابة ودقة التنسيق وسمو الخيال وحذق الصناع ؛ أما عن السجاد فحدث ولا حرج .

بعد كل هذه الجولة العامرة انتقلنا إلى حجرة البيان والحاكى ، وقد أشجتنا الأنامل الطاهرة

بحسن توقيعها الفطرى ، فنم أنامل « عائدة » التى ربما لا تتجاوز الثامنة من العمر ، والتى يحق أن يطلق عليها اسم « ليلى » ، ويطلق اسم « سعدى » على شقيقتها الكبرى، لأن الجو العربى البديع ترك طابعه الأنيق على الشقيقتين المعروسيتين .

ومن سمو البيئة بأجمعها لم تحرمنا ليلى الصغيرة « عائدة » ألعابها الرياضية ، فتارة تذهب إلى الحديقة تدير شئون أرجوحتها ، وطوراً تداعب حمامها الوديع ،ومرة تحضر إلى والدها ـ وافرحتاها به ـ ، وقالت له : ضع ذراعك على خصرك من فضلك (بابا) ؛ فلبى طلبها ، فانكأت بذراعها الرقيق على ساعده ولامست رأسها الأرض،ثم تركت ذراع والدها فكونت قوس نصر أمامنا ، وهكذا حقق الأستاذ « العمروسى بك » رسالته الوالدية ، وأجاب نداء (فروبل) القائل « دعونا نعش مع أطفالنا » .

وعند ما عزمنا على الانصراف ـ بعد أن مكثنا ساعات حسبناها دقائق ـ طاف بنا فى حديقته الغناء ، التى ابتسم فيها جمال الفن العربى أيضاً ، وخرجنا محملين فى عقولنا وأفئدتنا وايدينا فى غير عناء .

هذه صورة تقريبية من جولة فى بيت مرب أقل ما يقال فيه: إنه من أقوى دعامات النهضة العلمية والفنية والاصلاحية فى مصر ؛ أما عن متحفه الدائم النفيس ، فلنا فيه عودة اخرى ، غير إنه لفت نظرى للأبواب العشرة العديمة النظير ؛ وقد أفهمتنى هذه الزيارة معناها الحقيق إذا أردنا نسبتها إلى الأستاذ « العمروسى » فيكون تفسيرها كالآتى :

الباب الأول : النظام .
« الثانى : اليقظة ورحابة الصدر .
« الثالث: الذوق السليم .
« الرابع : تاريخ السلف .
« الخامس: الفن الحديث .
« السادس: التسامح .
« السابع: الأبوة الصالحة .
« الثامن : الانسانية السعيدة .
« التاسع : التربية أو التضحية العظمى .
« العاشر : الاطمئنان .

وهذه الأبواب العشرة قد أدى رسالتها « العمروسى بك » على أكمل وجه وأتم نفع ، وهو سمح فى نشاطه وماله ووقته ، فليهنأ به طلبة « معهد التربية » الذى يتوجه برياسته هذا العبقرى المتواضع . ؟

زينب الحكيم

N. F.U. London